احاديث مبسطة

عن

القداس الإلهى

٢

كيف نحتفل

بالقداس الإلهى؟

١٩٩٥

القمص تادرس يعقوب ملطى

كنيسة الشهيد مارجرجس باسيورتنج

كيف نحتفل بالقداس الإلهى؟

القداس الإلهى عيد مفرح. مع كل قداس إلهى يشترك المؤمنون – كهنة وشعبًا – فى الاحتفال بعيد قيامة ربنا يسوع، فيشعرون ببهجة القيامة العاملة فى حياتهم. يعيدون بغير انقطاعٍ بالسيد المسيح القائم من الأموات الساكن فى قلوبهم!

اذكر فى أول قداس إلهى احتفلت به فى كنيسة الشهيد مارجرجس بإسبورتنج أن طال جدًا وقت القداس الإلهى. وعندما التقيت بالمتنيح "عم صادق"، وهو إنسان بتول كرَّس حياته للشهادة العملية للإنجيل، قلت له إن القداس قد طال اليوم. وإذا بالدموع تتسلل من عينيه وهو يقول: "كيف تقول هذا؟! من يستحق أن يشترك فى القداس الإلهى؟! ليتنا نقضى عمرنا كله فى القداس الإلهى!"

كان من عادة "عم صادق" أن يهرب بعد صرف ملاك المذبح إلى منزله، ويغلق على نفسه فى حجرته الخاصة لمدة ساعة أو أكثر لا يلتقى بأحد، لأنه حمل السيد المسيح فى داخله!

هكذا كانت حياته كلها عيدًا لا ينقطع من أجل ارتباطه بالقداس الإلهى، الذى سكب عليه سلامًا فائقًا وفرحًا مجيدًا لاُ يعبر عنه!

كان هذا الشعور يتملك علينا فى طفولتنا، إذ كان للقداس الإلهى بهجته فى حياة العائلات، حيث كانوا يقومون بتنظيف منازلهم كل يوم سبت استعدادًا لبهجة العيد الأسبوعى: الأحد، أو الشركة فى القداس الإلهى. يصحب الاستعداد الخارجى استعدادًا داخليًا للنفس لاستقبال عريسها كما فى حفلٍ زيجى.

كما سبق أن قلت(١) خدمة الإفخارستيا هى رحلة فريدة من نوعها، يبدأها المؤمن منذ لحظة خروجه من بيته متجهًا نحو الكنيسة، مسلمًا نفسه تحت قيادة روح اللّه القدوس، لكى يمسك به ويسنده ويحتضنه ويرتفع به على سلم السماء، أى خلال صليب ربنا يسوع المسيح، خطوة فخطوة، حتى يدخل به إلى أعماق اللّه، فيلتقى بالثالوث القدوس. بهذا تفرح النفس باللّه ولا تريد مفارقته، إذ تقول مع القديس بطرس الرسول: "جيد يارب أن نكون ههنا" مت ١٧:٤؛ مر ٩:٥؛ لو ٩:٣٣...

يا لها من ساعات رهيبة، فيها تتحرك الكنيسة لكى تقف فى حضرة اللّه مع الشاروبيم والسيرافيم وكل الطغمات السمائية، تقدم للآب مشتهى قلبه، ذبيحة ابنه الوحيد، فداء عن العالم كله!

وكأننا فى القداس الإلهى نرحل، لا عن بيوتنا، بل عن همومنا وأتعابنا الأسبوعية أو نأتى بها لكى نلقيها عند قدمى مسيحنا، الذى يملأ حياتنا بفرحه المجيد، ويدخل بنا إلى راحته.

كثيرًا ما توجه إلينا التساؤلات التالية:

لماذا لا نشعر بالقداس الإلهى انه رحلة إلى السماء؟

لماذا نعانى من تشتيت الفكر أثناء القداس الإلهى؟

لماذا نشعر أن وقت القداس طويل؟

أولاً: لا نستطيع عزل احتفالنا بالقداس الإلهى عن حياتنا اليومية. فإن كان لمسيحنا النصيب الأول فى وقتنا وفكرنا؛ نبكر إليه كما نختم يومنا بلقائنا معه... نناديه دومًا خلال يومنا أينما كنا، وننشغل به حتى فى أحلام يقظتنا وأثناء نومنا... عندئذ تتهلل نفوسنا بالقداس الإلهى، ونشعر أثناء احتفالنا انه رفع للقلب والفكر ولكل إنساننا الداخلى

إلى السماء.

فى القديم كان اليهود يستعدون أسبوعًا كاملاً لعيد الفصح، ممتنعين عن ادخال الخمير إلى بيوتهم. هكذا يليق بنا أن نستعد كل أيامنا للتمتع بالاتحاد بالمسيح فصحنا ممتنعين عن خمير الشر. يقول القديس بولس الرسول: " إذًا لنعيد ليس بخميرةٍ عتيقةٍ، ولا بخميرة الشر والخبث، بل بفطير الاخلاص والحق" ١ كو ٥:٨ .

ثانيًا: بممارستنا التوبة اليومية نشعر بالحاجة إلى المخلص غافر الخطايا بدمه الثمين، ويتحول القداس الإلهى إلى رغبة صادقة فى الثبوت فى المخلص. بهذا يصير فكرنا وأحاسيسنا ومشاعرنا ممتصة فيه.

التوبة كقول السيد المسيح هى طريق الملكوت؛ تهبنا نحن الخطاة الاستحقاق للتناول! أما عدم التوبة فيقف عائقًا عن دخولنا الطريق الملوكى المفرح!

ثالثًا: المؤمن الذى يفتح الكتاب المقدس فى بيته كل يوم، ليجد نفسه ترتفع كعروسٍ تتحد بعريسها الكلمة المتجسد، وتدخل إلى حجاله، وتتعرف على أسراره ، تفرح وتتهلل بالاحتفال بالقداس الإلهى، إذ تجد فيه عرسًا حقيقيًا يبتلع كل أحاسيسها!

رابعًا: شركة الشعب مع الكهنة فى الاحتفال بالقداس الإلهى. فالقداس الإلهى هو خدمة الكنيسة كلها، كهنة وشعبًا، يصلون معًا بالروح كما بالذهن، كقول الرسول بولس (١ كو ١٤:١٤). لهذا يليق ممارسة القداس بلغة مفهومة، خاصة بالنسبة للجيل الجديد فى المهجر.

يليق بالمؤمن فى القداس أن يشترك فى التسابيح والتشكرات والطلبات، فيدرك أنه يلتقى مع السمائيين ويشترك معهم فى تسابيحهم، كما يحمل فى قلبه العالم كله – المؤمنين وغير المؤمنين – مصليًا لأجل خلاص الجميع وبنيانهم الروحى ووحدتهم فى الإيمان والحب.

خامسًا: بالصوم، فقد اعتادت الكنيسة الأولى فى الشرق والغرب على الاحتفال بالقداس الإلهى وهم صائمون، كاستعداد روحى لاستقبال جسد الرب ودمه وتناولهما.

ربما يتساءل البعض: هل كان السيد المسيح وتلاميذه صائمين؟

إذ صار كلمة اللّه إنسانًا حقيقيًا خضع بإرادته للناموس الطبيعى كما للناموس المكتوب، حتى قَبِلَ الختان فى جسده، ومارس العبادة كواحدٍ منا، وحفظ السبت ممارسًا إياه لا بالحرف القاتل، وإنما بعمل الخير وإعلان تحننه على الغير. كان السيد المسيح وتلاميذه صائمين فى يوم الخميس الكبير حيث أسس السيد المسيح سر الإفخارستيا للأسباب التالية:

١. منذ أيام عزرا كان الخميس يوم صوم وصلاة(٢)، لأن موسى بدأ صومه على جبل سيناء يوم الخميس لاستلام الوصايا العشرة والناموس(٣).

كان الشعب كله بقياداته يصوم كل خميس تذكارًا لاستلام الشريعة فى القديم، أفلا يليق بنا أن نصوم استعدادًا لقبول الكلمة ذاته، والتناول من جسده ودمه المبذولين فينا؟! إننا لا نستلم حجرى الشريعة بل الكلمة ذاته!

٢. كان السيد المسيح وتلاميذه صائمين، ليس فقط لأنه كان يوم خميس، وإنما كان يلزم على كل يهودى لم يستطع الاشتراك فى خدمة الهيكل ان يصوم لمدة أربعة أيام قبل الفصح، لا يأكل ولا يشرب حتى الغروب(٤).

٣. كتذكار لخلاص أبكار الشعب عندما قتل الملاك المهلك أبكار المصريين فى ليلة الخروج من العبودية، كان كل بكر عبرانى يلتزم بصوم يوم الفصح بطريقة حازمة. وإذ يحسب السيد المسيح بكرًا، لهذا بحسب التقليد

اليهودى كان صائمًا.

إن كان السيد المسيح قد طلب من تلاميذه أن يصوموا ويصلوا لأجل الغلبة على الشياطين (مت١٧:٢١) أفليس بالأولى أن نصوم لنستعد بالتمتع بواهب الغلبة والنصرة؟!

إذن إن كان الصوم هو أحد العناصر الرئيسية للاستعداد للفصح (الصوم، والصلاة، والاعتراف بالخطايا مع توبة القلب، وتقديم ذبائح وتقدمات للرب) فإنه يليق بنا أن نصوم استعدادًا للتمتع بجسد الرب ودمه فصحنا الذى ذبح لأجلنا.

كان السيد المسيح وتلاميذه صائمين. لهذا نجد جميع الكنائس الأولى تؤكد ضرورة الصوم مع التوبة والاعتراف استعدادًا لهذا السر العظيم، ولاُ يعفى منه إلا المرضى وغير القادرين!

سادسًا: يليق بنا أن نخرج من بيوتنا مع أبينا إبراهيم لنذهب إلى الأرض التى يرينا إياها، أى إلى مذبحه المقدس. نترك وراءنا أرضنا وعشيرتنا وبيت أبينا، أى نطرد عن قلوبنا كل إهتمام زمنى وارتباك، لكى تنفتح أحاسيسنا الداخلية لمعاينة أسرار اللّه السماوية الفائقة، ويتسع القلب بالحب للعالم كله فى المسيح يسوع.

ما أجمل أن نصلى قبل خروجنا من بيوتنا، وأثناء ذهابنا إلى الكنيسة، طالبين من اللّه أن يطرد عنا كل تشتيت للفكر، لكى يتجه كياننا كله نحو اللّه بفكر مضبوط(٥).

سابعًا: يليق بنا أن نبكر إلى الرب كما بكر إبراهيم صباحًا ليقدم ابنه الحبيب الوحيد إسحق محرقة للرب. لنسرع إلى بيت الرب بغير تأخير فإنه فى انتظارنا وقد أعطانا موعدًا. حقًا هو طويل الأناة ينتظرنا حتى إذا تأخرنا، لكن بهذاُ نحسب مستهترين مادمنا بلا عذر حقيقى(٦).

ثامنًا: إذ ندخل بيت الرب نصعد مع موسى النبى، لا إلى الجبل لنتسلم شريعة مكتوبة على ألواح حجرية، بل إلى بيته لنتناول جسد الرب ودمه المحيين، ونبقى هناك حتى يأمرنا بالانصراف، فلا نهين الجالس معنا.

V قد دخلت الكنيسة يا إنسان، وتأهلت أن تكون فى صحبة المسيح، فلا تخرج منها قبل أن يسمح لك، وإلا فإنكُ تسأل عن السبب وُتحسب هاربًا(٧).

القديس يوحنا الذهبى الفم

تاسعًا: جاء فى قوانين الكنيسة:

V لا يخرج أحد من الكنيسة بلا ضرورة بعد قراءة الإنجيل المقدس إلا بعد رفع القربان وبركة الكاهن والتسريح(٨).

V أن نصلى برهبة وخوف، لا بعجب ولذة (حب الظهور)(٩).

V أن نقف فى الكنيسة بهدوء وعفاف لسماع كلمة اللّه(١٠).

V ألا يتكلم أحد فى الكنيسة(١١).

---

١. Fr. T. Malaty: Christ in the Eucharist, Alexandria 1973, p. 279.

٢. Palastine in Days of Christ, p. 38; Fr. James L. Meagher: How Christ said the First Mass?, Illinios 1984, p. 321.

٣. Babyl. Talmud: Baba Kamma, vol. 82-1؛

Edersheim: Life of Christ, ii, 291, Lev. 16:29; Joel 1:1; Acts 12:2.

٤. Edersheim: The Temple, p. 300.

٥. Christ in the Eucharist, p. 281.

٦. Ibid 283.

٧. PG. 63:623-632.

٨. بس ,٩٨

٩. 10. Didache, 10.

١٠. Basil, 67.

١١. Basil, 17.

القداس الإلهى رحلة إلى السماء

القداس الإلهى فى جوهره هو رحلة إلى السماء، تعيشها الكنيسة كما يعيشها كل مؤمن فيها، كاهنًا كان أم من الشعب. لذا يصعب تقسيمه إلى وحدات منفصلة، إلا لأجل الدراسة والفهم الروحى ومتابعة القداس الإلهى، لا بالاستماع إليه، بل بالشركة فيه.

أقسام القداس الإلهى

فى الكنيسة الأولى كان القداس الإلهى يحوى جزئين رئيسيين:

١. ليتورجيا الموعوظين: يغلب عليها الطابع التعليمى والوعظى والكرازى دون تجاهل للجانب التعبدى. يسميها بعض الدارسين السيناكزس Synaxis.

٢. ليتورجيا المؤمنين، أو الإفخارستيا، وبالقبطية "الأنافورا"، مقتبسة عن اليونانية لتعنى "رفع (الإنسان أو الشىء) إلى فوق"، وهى عمل تعبدى عميق خلاله يرتفع بنا الروح القدس إلى السماء عينها لنلتقى بالسيد المسيح الذبيح القائم من الأموات والصاعد إلى السموات، ونتحد به، دون تجاهل للجانب التعليمى.

يرى البعض أن القسمين كانا منفصلين فى جميع الكنائس وتلاحما معًا فى القرن الرابع حتى صارا يمثلان طقسًا واحدًا.

أقسام القداس الإلهى القبطى

الليتورجيا الإلهية هى رحلة إلى السماء، ننعم بها بالروح القدس فى صحبة ربنا يسوع المسيح لنثبت فيه وهو فينا، فنجد لنا موضعًا فى حضن أبيه. تنقسم إلى:

١. التسبحة والخدمة الإلهية (رفع بخور باكر Matins): هما إعداد لهذه الرحلة، أو قل هما دعوة موجهة إلى العالم كله، المنظور وغير المنظور؛ إلى كل الخليقة العاقلة وغير العاقلة، لكى يدخل الجميع فى حياة تسبيح للّه الخالق والمخلص.

قبلما تبدأ صلوات الليتورجيا يحمل الكاهن مع الشعب كل الخليقة فى صحبتهم ليسبحوا المخلص ويدخلوا معه فى مناجاة. إننا نتهلل اننا نشارك السمائيين تسابيحهم، وندعو السماء والأرض حتى الحيوانات والطيور والجبال والأنهار وكل خليقة أن تمجد الخالق!

يلتف السمائيون مع الأرضيون حول "الصليب" ليرنموا لحمل اللّه حامل خطية العالم، هذا الذى يدخل بنا نحن الأرضيين إلى شركة أمجاده السماوية.

هذا مع رفع القلب للصلاة من أجل كل احتياجات الكنيسة والبشرية.

عبَّر عن هذه الحالة من التهليل القديس بطرس خاتم الشهداء حينما تحدث عن عماد السيد المسيح، كيف تهللت كل الخليقة به، ويمكننا أن ننطق بنفس الكلمات بخصوص سر الأفخارستيا.

[اليوم يمتلئ العالم كله فرحًا،

سكان السماء يبتهجون،

والملائكة تعيد،
وكل البشرية تتهلل!
الفردوس يصرخ عاليًا،
والجَلَد كله يرقص!
والقطيع فى المراعى يثب متهللاً،
حيوانات الحقل تصرخ.
جميع المياه تصفق بالأيادى!
تحولت الرائحة الكريهة إلى عطور طيبة،
والظلمة إلى نورٍ!
تبسط كل الأشجار أغصانها(١)!]

٢. تقدمة الحمل: قديمًا كان هذا الطقس جزءً من ليتورجيا المؤمنين، لكن منذ القرن الخامس صار ُ يمارس قبل ليتورجيا الموعوظين، حتى يتهيأ الشعب لتجديد العهد مع اللّه خلال سماعهم كلمة اللّه وتمتعهم بالشركة فى الأسرار المقدسة.

فى بدء انطلاق الرحلة يليق بالكنيسة أن تتعرف على حساب النفقة، فتلتزم بتقديم حياتها كلها فى المسيح الذبيح، ذبيحة للرب الذى ُ ذبح لأجلها. الرب الذى قدم حياته مبذولة لن يقبل أقل من أن تقدم الكنيسة حياتها كلها مبذولة لأجله. هذه هى تكلفة الرحلة: دم الحمل الذى يبعث فى الكنيسة روح بذل الذات بلا حدود!

٣. القراءات [قداس الموعوظين أو قداس الكلمة]: وهى دليل الرحلة ومرشدها.

القراءات الكنسية المقتبسة من العهدين القديم والجديد ومن تاريخ الكنيسة مع كلمة الوعظ هى الخريطة التى من خلالها نفهم مركزنا بالنسبة للّه، وعلاقته بنا ومعاملاته معنا، بدونها نضل الطريق ولا نبلغ غايتنا.

فى القراءات أيضًا تعلن الكنيسة شهادتها للّه الذى هو غاية الرحلة، فتشهد له قدام أولاده وأمام الموعوظين، فيسمعون صوته الإلهى خلال:

ا. رسله: "البولس والكاثوليكون". رسائل معلمنا بولس الرسول وبقية الرسل.

ب. أعمال رسله: "الإبركسيس". سفر أعمال الرسل.

ج. أعمال الكنيسة: "السنكسار". يسجل أعياد السيد المسيح والسمائيين والشهداء والقديسين.

د. التسبيح: "المزمور".

هـ. ابنه: "الإنجيل المقدس".

و. خدامه: "العظة".

تمتزج هذه القراءات بصلوات ترفعها الكنيسة لكى يعمل روح اللّه القدوس فى قلوب السامعين والقرّاء، فيكملوا رحلتهم فى رجاء مفرح.

٤. الأواشى: خلال هذه الرحلة الروحية ترفع الكنيسة قلبها أمام العرش الإلهى حتى يحفظ اللّه للكنيسة سلامها (أوشية أو صلاة السلامة)، ويسند خدامها (أوشية الآباء)، ويبارك اجتماعاتها (أوشية الإجتماعات)، حتى تتمم رسالتها بغير إنحراف.

٥. ما قبل الأنافورا: إذ يستعد الكل للارتفاع فى السمويات والجلوس مع ربنا يسوع المسيح، تعلن الكنيسة عن مصالحة اللّه مع الناس فى المسيح يسوع (صلاة الصلح)، ويجيب المؤمنون على ذلك عمليًا بمصالحتهم مع بعضهم البعض (سبازموس أو القبلة الروحية).

٦.الأنافورا: وهى دخول فى السماء، حيث يتحقق حلول الروح القدس، ويتحول الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه الأقدسين، مع انتعاشنا روحيًا بتناولهما بروح التسبيح والفرح.

---

١. On Epiphany, translated by Dr. Pirger A. Pearson and Dr. Tim Vivian, from the Coptic (Beheric), and published by the "Coptic Studies Review," 1992.